تعليم التسامح...

صوفيا . ٢٦ تموز/يوليو ١٩٧٦

لدى عودتي من البطولة الثامنة للبالية الدولية في فارنا على شاطئ البحر الأسود البلغاري، وهي البطولة الأوليمبية غير الرسمية لعالم الرقص، اكتشفت في صوفيا كنيسة صغيرة تقبع تحت مستوى الشارع، وكأنها قد غرقت في خندق. ويُعْتَبَرُ هذا المبنى الغريب، واسمه القديس بطرس سامرجينسكا، أحد أهم ما يجذب النظر في العاصمة البلغارية. وقد بُني هذا المبنى عندما كانت هذه البلد جزءاً من الإمبراطورية [الخلافة] العثمانية. وقد فسَّر الدليلُ السياحي الذي كان يرشدني إلى معالم المدينة أن هذه الوضعية الغريبة للكنيسة كانت دليلاً على التمييز العنصري للمسلمين ضد الأقلية النصرانية آنئذٍ. إلا أنني أراها من الزاوية الأخرى.

إنني أعلم علم اليقين أن النصارى الإسبان، بعد المحررين، قد دمَّروا بشكل شنيعٍ كل مسجدٍ من مساجد المسلمين من ملقا *Malaga* إلى غرناطة، ومن صقلية إلى طليطلة. إلا أن البناء الرائع في قرطبة نجا، واكتفوا بتخريبه بشكل بشعٍ، لسبب واحد فقط، وهو أنه كان يمكن تحويله إلى كاتدرائية. وقد تعرَّض المسجد الكبير في الجزائر للمصير ذاته في القرن التاسع عشر.

ولقد علمت أيضاً أنه كان مضيعةً للوقت أن تبحث عن مئات المساجد التي وجدت في حقبةٍ من الحقب التاريخية في صربيا واليونان لما كانتا تحت الحكم التركي [العثماني]. ففي بلغراد لا يمكنك أن تجد سوى

مسجد صغير جداً لا تظهر فيه أية مؤشرات وزخارف معمارية، ويبدو أنه نجا من الدمار الذي حلَّ بسائر المساجد الأخرى.

حقاً، إنه تناقضٌ عجيب!... إن الفاتحين المسلمين لم يسمحوا فقط لأتباع النصرانية أن يستمروا في كنائسهم الموجودة، بل إنهم سمحوا لهم ببناء المزيد من الكنائس تحت ظل الحكم الإسلامي. فكيف إذن يمكن أن يستمتع السياحُ اليوم بجواهر مثل كنيسة كورا البيزنطية *Chora* الشهيرة (كاريا كامي)، واليونان الأرثودوكس والكاتدرائيات الأرمنية في اسطنبول؟ فلو كان التشددُ النصراني هو النموذج الذي اتبعه المسلمون فماذا يا ترى يمكن أن يبقى من الكنائس الصربية الموجودة على بحيرة أوهريد، أو جراكانيسيا، أو ديكاني، أو سوبوكاني، أو بيك، أو ستودانسيا، والرائعة الفخمة آيا سوفيا في اسطنبول؟

إن العلامة الفارقة بين التشدد النصراني والتسامح الإسلامي تعتمد على الأمر القرآني الصارم أن يتسامح المرء مع مؤمني أهل الكتاب، والذي تطور فيما بعد ليصبح قانوناً مفصلاً لحماية كل من الأقليات والأجانب. وتنص الآية ٢٥٦ من سورة البقرة بوضوح على ما يلي: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

إن التعددية الدينية ممنوعةٌ، كما هو واضحٌ من سورة المائدة، الآية ٤٨:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

وهو أمرٌ فيه تنافسٌ سليمٌ بين المتقين، بين يدي ربهم. وأما في سورة الشورى فيقول ربنا ﷻ:

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

ويمكن أن يفهم المرء هذا التسامح بشكل أفضل عندما يدرك أن المسلمين ينظرون إلى المسيح عليه السلام على أنه أحد أعظم الأنبياء في بني إسرائيل. فالقرآن الكريم ينص في سورة الشورى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

وقد كان باستطاعة النصارى في ظلِّ الحكم الإسلامي الحرِّ الذي يحكم حقوق الأقليات وامتيازاتهم، كانوا يتمتعون بحقِّ تنظيم جاليتهم وممارسة دينهم في كنائسهم. وقبل ظهور مفهوم "المستكف ضميرياً"، كان غير المسلمين مستثنين من الخدمة العسكرية بأن يدفعوا مبلغاً يقدَّرُ لهم بشكل عادل، يُعْرَفُ بـ: "الجزية". وكما كان حال أقليات "يهود" تحت الحكم النصراني، فإن "أهل الذمة"، وهم الذين يحميهم الإسلام في البلاد الإسلامية، لا بد أن يرتدوا زياً محدداً لهم. ولم يكن يحقُّ لهم الالتحاق بوظيفة حكومية رسمية، أو في الخدمة العسكرية، إلا أنهم احتفظوا بحقهم في المنافسة في السوق والتفوق في الفنون. بل كان يحق لهم أكل لحم الخنزير وتناول الخمور. بل وعلاوةً على ذلك، فإنهم بموجب مبادئ الفقه الإسلامي، كما هي الحال في القانون الروماني، فكان يجب أن تبقى العقود دون تحديد مذهب الشريك.

واحسرتاه!...فقد أدت الحروب الصليبية الشائنة غالباً بالتطبيق لا بالنظرية، إلى تردي مصير النصارى بشكل ملحوظ تحت ظل الحكم الإسلامي. ونتيجة لهذا، ففي بداية العصور الوسطى لم يكن يسمح لغير المسلمين أن يبنوا كنائس أعلى من بنيان المساجد المحيطة بهم، وهكذا فقد كان هذا الشكل العجيب للكنيسة المنخفضة عن مستوى الشارع لكنيسة القديس بطرس سامرجينسكا. كما منع فقهاء الشافعية النصارى من قرع نواقيس الكنيسة أيضاً.

ومع ذلك، فكم يا ترى يزن هذا التمييز بالنظر إلى الحقيقة التي تنص على أن الحُكّام النصارى لم يعتبروا الأذان فحسبُ خروجاً على القانون، بل اعتبروا الإسلام بأكمله خروجاً عن القانون؟!...

الصيام بهدفٍ...

بلغراد . رمضان ١٩٧٧

كان المزارع الذي يعتني بحديقتي ألبانياً من منطقة كوسفو صربيا في جنوب شرق يوغسلافيا نحيل الجسم كالعود، وكأنه ذو تسعة أرواح كالهرِّ، وكان مسلماً محافظاً. وكأنه يريد أن يحترم اسمه الذي يتميز عن أسماء غيره من الناس "رمضاني رمضان"، فلذا كان يحافظ على صيام الشهر القمري رمضان بأكمله، إلا أنه لا يهمل أياً من واجبات عمله وحياته العادية. فبعد أن يُفطر على وجبةٍ خفيفة في اللحظة المناسبة عند المساء هي "الإفطار" كان يسير على قدميه ثلاثة أميال ليصل إلى المسجد الوحيد في بلغراد، قريباً من حديقة كاليمغدان، ليؤدي صلاتي العشاء والتراويح في جماعة المسلمين الألبان من بني جلدته وإخوانه من سراييفو، وموستار، أو من مدنٍ أخرى في الجمهوريتين الإسلاميتين من يوغسلافيا الشيوعية: البوسنة والهرسك.

وكنا ندعو رمضاني بين فترة وأخرى ليتناول معنا وجبة ما بعد الإفطار. لقد كانت تلك هي الفرصة الوحيدة إذ كان يرفض أن يتناول كوباً من القهوة معنا في الصباح، ومنذ أن يصبح قادراً على تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

وقد شاهدت مسلماً آخر محافظاً بمثل هذا الثبات، كان راكباً معي في الطائرة في رحلة إلى اسطنبول، وكان صائماً خلال الرحلة. وكان ينظر إلى ساعته بين الفينة والفينة، ولم يلمس وجبته، علماً بأنه كان يحميها، ويمنع المضيفة من أخذها حتى حان وقت الإفطار ليفطر عليها.

ليس من المهمِّ متى يبدأ الصيام، ولا متى ينتهي إذا كان الهدف من هذا التدريب هو تخسيس الوزن فقط، إلا أن الجسم أثناء فترة التشاف المطهرة يلمسُ بنفسه الوحدة مع الفقير الجائع في إفريقية، ويشعر بالإرادة الفولاذية من خلال تدريب القوة الروحية. إن كل هذه الآثار هي في الواقع سُقَاطةٌ [إضافية] ومكاسب غير متوقعة. فالمسلم، بشكل أساسي، يتقيد بقواعد صوم رمضان لأنها قد أرسيتْ وحدِّدَتْ له، وهو عبدُ الله، من قبل سيده ومولاه ربِّ العالمين.

المرء أعمى دون الوحي...

بلغراد ـ ٢٨ آذار/مارس ١٩٧٨

كانت عادتي أن أقرأ كتابين أناوب القراءة فيهما، فمرةً أقرأ "النص الصعب"، ومرة أبحث عن نص آخر أسهل منه. وإنني حالياً أمارس هذه الطريقة بالقراءة من الفلسفة التقليدية الكلاسيكية الإسلامية في الفترة الواقعة ما بين القرنين العاشر والثالث عشر، فأقرأ لفلاسفة مثل: ابن رشد في كتابه "تهافت التهافت"، في ترجمة أعدَّها سايمون فان دِنْ بيرغ (لندن، ١٩٦٩).

وقد تعارف مثقّفو الغرب حتى خلال القرن التاسع عشر على أن ابن رشد يتعامل باحتقار، بل ويسيء إلى خصمه، العالم الجليل أبي حامد الغزالي في كتابه "تهافت الفلاسفة"، وذلك ليضيف فقرةً إلى كل فقرةٍ من دفاعه الذي يبدؤه بقوله: "إلا أنني أقول...".

وقد وقع الفلاسفة المسلمون في أوائل القرون الوسطى في حلقة الأسئلة ذاتها التي ابتدأها الفلاسفة الإغريق من اليونان. وبالتالي، فقد حذوا حذو كل من أفلاطون، وأرسطو طاليس، وبلوتونيوس وبروكلوس، خطوة بخطوة. وكما فعل هؤلاء، فقد قام كل من الفلاسفة الفرس والعرب بتقليل تساؤلاتهم عن أسئلة تتعلق عن خلود (أو خَلْق) العالم، والعلاقة بين الموجود والممكن، وطبيعة الروح، إلخ. إلا أن هؤلاء المفكرين المسلمين أدهشهم علم الكون: وما إذا كان الله، الصمدُ القيوم، الذي لا تؤثر فيه أو عليه أي قوة مهما بلغ مقدارها، أن يكون هو ذاته محرِّك كلّ شيء؟ ولماذا تتحرك الأجرامُ السماوية الهائلة وتدور في أفلاكٍ بالشكل الذي تدور فيه، وليس العكس؟ وكم هو عدد الملائكة؟

ولعلَّ أكثر الأسئلة الفلسفية لعصرنا إثارةً هو: "لماذا؟"، أو ما هو سرُّ

وجودنا لم يكدْ يُلْمَسُ حتى الآن. ولعلهم اقتربوا منه اقتراباً فقط عندما تعجبوا وأثاروا سؤالاً يقول: "هل خلق الله هذا الكون العظيم الشاسع لنفسه؟"هل ثبَّتَ هؤلاء الفلاسفة الأتقياء، الذين سحرتهم تلك الأفعى، أرسطوطاليس، فثبَّتوا أبصارهم على الماضي الفلسفي؟ أو هل اعتقدوا أن ذاك الأمر كان عديم النفع والفائدة، إن لم يكن كُفراً بواحاً، بأن يسهموا في بحثٍ يثير الكوامن والمشاعر، والله ﷻ، مستوٍ على العرش؟

لقد حفظ لنا التاريخ العديد من الكتابات الخلاقة المبدعة التي تنمُّ عن ذكاء وقدرةٍ بالغين، سطَّرها مفكرون مسلمون عمالقة أمثال: الفارابي، والرازي، والكندي، وابن عربي، وابن سينا، إلى جانب من أسلفنا ذكرهم سابقاً. ومع ذلك، فإن ما يؤثر علينا أكبر تأثيرٍ اليوم هو إدراكنا المحزن أن العقلانية الذكية عندما تستخدم للتعرف على الميتافيزقيا [ما وراء النفس البشرية] فإنها لا تؤدي إلا إلى تأملاتٍ سخيفة مضحكة. لقد استطاع أولئك الفلاسفة القدامى أن يبرهنوا أمراً واحداً: إننا لا نستطيع أن نطبق استخدام المنطق البشري للحصول على أي فكرٍ يمكن الاعتماد عليه في حقيقة عالم الغيب. فإذا لم يكن الماضي والمستقبل يعنيان أي شيءٍ بالنسبة لجلال الله ﷻ، وعظمته، وإذا كان سرُّ وجوده هو سرُّ خلوده، وإذا كان الحقُّ ﷻ موجوداً خارج الحدود المحسوسة للزمان والمكان، فما الذي يمكننا أن نعرف عنه إذن بتساؤلاتنا الذكية (أو اللامنطقية)؟ سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

ومقابل لُغْزِ وجودنا، بل حتى الحقيقة التي يمكن أن ندركها ونفهمها، فإن الأشياء التي يمكن أن نشمَّ روائحها، أو نلمسها، أو نراها، ستبقى جميعها ملتفةً بغموض عجيب. وبمعنى آخر: "إننا عُميانٌ دون الوحي الإلهي!..."

شُرْبَةُ ماءٍ لا يعدلها وزنٌ...

بلغراد ـ رمضان ١٩٧٨

لقد قررنا أن نحاول الصيام هذا العام، كما هو مكتوبٌ على المسلمين تماماً. إلا أننا، وعلى النقيض من العادة المنتشرة في مختلف أصقاع العالم الإسلامي، لم نُرِدْ أن نحاول الاستيقاظ في الليل، على حساب نومنا وراحتنا، لنتقوى بشيءٍ من الغذاء على ما سنفقده من طعام خلال النهار (تُرى هل كان هذا على غرار ما تعودنا عليه من عدم تناول اللحم يوم الجمعة إذ كان الكاثوليك يتناولون المأكولات البحرية في تلك الأيام؟) وأيما كان الأمر، فمن المهمِّ جداً أن يرغم المرء نفسه على تناول أكبر كمية ممكنة من السوائل قبل أن يعاوِدَ الصيام. (فعلى الأقل، لا يمكن مقارنة الإنسان بالجمل فيما يتعلق بما يخزنه الجمل من احتياطي الماء في جسمه).

إن أول يومين في الصيام هما أشقُّ أيام الصوم وأصعبها: وهما يوما صُداعٍ مستمر. ولذا، فمن المستحسن أن يتابع المرء صيامه حتى ولو كانت القواعد تبيح له قَطْع صومه والتوقف عنه، كما هي الحال في أيام السفر.

ويجب أن يستغل المرء إلى الحد الأقصى وقت الاستيقاظ الطبيعي الذي تمنحه المنحنيات البيولوجية. ولهذا السبب، فقد قسمت عملي إلى أعمال "واجبة" وأخرى "مستحبة"، وأخرى "ممكنة" التنفيذ، وبدأتُ أولاً بالأعمال "الواجبة" حين وصل ضغط دمي إلى ذرواته الطبيعية، أي في الساعات المتأخرة من الصباح، وفي الساعات المتوسطة بعد الظهر. كما بذلتُ قصارى جهدي في تجنب تعريض حياتي وحياة الآخرين من حولي لمخاطر حركة المرور نتيجة لانخفاض مستوى السكر في الدم، أو نتيجة لحالة الإرهاق والتعب البالغين للجسم. ومع ذلك، فقد تضاعفت مخاطر التسبب بالحوادث المميتة نتيجة الإهمال والشرود الذهني آلاف المرات مما كانت عليه أثناء القرن السابع.

عندما تصوم في يوغسلافيا يذكّرُ المرءُ دائماً بأنه غريبٌ. فعلى سبيل المثال، يجب أن يرفض الصائم ما يمكن أن يُقدَّم له من القهوة التركية أو العصير والماء في وزارة الخارجية في كينزا مايلوسا. إلا أنك إذا رفضت بأدبٍ هذا العرض والضيافة أثناء شهر رمضان، فإنك واجدٌ بعض التفهّم، بل وشيئاً من الاحترام، وذلك فقط لأن هذا البلد الجميل لازال موطناً لحوالي مليون مواطنٍ مسلم.

وبعد أسبوع من الصوم، بما لا يقل عن ثماني عشرة ساعة يومياً إذْ صادف أن يكون شهر رمضان في فترة الصيف، يصل الصائم إلى حدٍّ يصبح فيه اقتصاد الحركة والكلام أمراً طبيعياً. وقد وجدتُ نفسي أتحركُ ببطءٍ، وأتكلمُ فقط عندما يكون الكلامُ ضرورياً، وأراقب كلاً من السرعة والتبذير أمامي بتأمُّلٍ دقيق، ولاحظتُ أنني أزداد كل يوم مزيداً من الاستقلالية، بل وربما مزيداً من الحكمة. وعندما أبدأ تناول وجبة الإفطار في المساء، فقد كان يبدو لي أن تناول حباتٍ من "الزيتون" عند بدء الإفطار بشكل تقليدي، وأتْبِعُهُ بشُرْبَةٍ من الماء، يبدو لي هذا وكأنه احتفالٌ له وزنُهُ الخاص. فكما ترى النبات العطشان إذا سقيته بالماء، فإن الجسم البشري أيضاً يمكن أن يستعيد نشاطه بكمية قليلة من الماء. ويصبح المرء في تلك الحالة مقدِّراً لوجبة من الخضار فقط، دون أية لحوم.

ويبدو كذلك يوماً بعد يوم أن معنويات الصائم تنمو باستمرار، تماماً مثلما تنمو ثقة المرء بترتيب أولوياته بشكل صحيح. وبنتيجة التحليل النهائي يمكننا أن نوجه السؤال التالي: ألا يعني هذا الصيام بشكل رئيسٍ تطوير المناعة ضدَّ الإغواء الذي يسمى: "الشرك"؟ وهو خطر تعظيم ما هو غير أساسي في حياة الفرد إلى حد العبادة...

آلام العضلات، والمعنويات الجديدة

إيدرين ـ ١٢ تموز/يوليو ١٩٧٨

توَّج سنان، الذي كان رئيس مهندسي السلطان سليمان منذ عام ١٥٣٩، توَّج إنجازاته العمرانية الرائعة بإنشاء مسجد السليمي في إيدرين، والذي تمَّ بناؤه بين عامي ١٥٦٧ ـ ١٥٧٤.

ومع ذلك، فلم يعرف سوى قلةٍ من الزوار أنه اخترع، أو أوجد ثلاثة أدراج مستقلة عن بعضها ضمن مئذنةٍ واحدة ضيقة. وتلتف هذه السلالم حول بعضها دون أن تتحد ببعضها على الإطلاق، اللهم ماعدا المدخل والمخرج المشترك.

وقد استثناني خادم المسجد من القواعد المتبعة عندما سمح لي بصعود المئذنة. ويا لهُ من عملٍ متعب!... كان الدرج مظلماً في غالب الأمكنة، وكانت الخفافيش التي تعشق الظلام، والطيور التي تحب الهدوء تفرُّ من أمامي (وأنا بدوري كنت أفزع منها جميعها). وقد تقدمتُ في السير ببطء وبوضعية من الحذر والانتباه الشديدين، وكنت أقدِّم القدم ذاتها في كل مرة. ولم تكن هناك طريقة أخرى للمسير في هذا المكان الضيق المتعرج المحصور. وبدأت ركبتاي ترتجفان بعد فترة وجيزة. إلا أنني لم أستطعْ حتى مجرد التفكير بتغيير الاتجاه إذ لم يكن بوسعي أن أدور في مكاني. كانت الحالة حرجة جداً، وكانت تشتمل على الكثير من الرمزية: لم أدْرِ متى سينتهي صعود هذا السلَّم، إلا أنني كنتُ موقناً أنني سأصل إلى نهايته. وقد اخترتْ اتجاهاً واحداً، وكان هذا القرار نهائياً لا رجعةَ فيه.

وعندما أنهيتُ تلك المهمة وعدتُ أدراجي كنتُ متَّسِخاً، مجهداً، منهوك القوى، ومتحيراً بعض الشيء، وقد كسبتُ مكسباً رائعاً: ألم وتصلب في الذراع والرجل، ونصرٌ معنويٌّ جديد!...

بطولة في الباليه ـ ومنافسة دينية

بلغراد ـ ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٧٩

اعتدت ضمن حدود إمكاناتي كمحام ناشئ، وناقد للباليه، وسكرتير تنفيذي لنادي ميونيخ للباليه، اعتدت تنظيم سهرات الرقص السنوية في مسرح جارتنربلاتز. وكان البرنامج يعتمد دائماً على مساهمات فردية وغير مراقبة تمنحها مدارس الباليه الخاصة. كانت نيتي الحقيقية (إلا أنها متنكرة) هي أن أبين للآباء المساكين، ولطلاب الرقص أن هناك فارقاً نوعياً كبيراً بين مدارس الباليه، التي كان يتميز بعضها بأنه ممتاز، وبعضها الأخير تعيسٌ للغاية. وكنت آملُ أن المنافسة بين المدارس الممتازة والتعيسة تقنع المدارس التعيسة بالخروج من هذا المجال.

ولعل جيرهارد سيزيسني اتبع سراً الطريقة ذاتها عندما نشر نتائج استبيان آراء الأكاديميين بين المتدينين من كل من: الكاثوليك، والبروتستانت، والبوذيين، والمسلمين واليهود (*Die Antwort der Religionen, Reinbek 1971, 1st ed. 1964*) ومهما كان هدف الناشر، فقد كان من المؤلم أن تقرأ الإجابات المبهمة، الموجزة الساخرة التي قدَّمها اثنان من ممثلي النصرانية، وبخاصة عندما تمت مقارنة تلك الإجابات مع إجابات الأستاذ محمد أسد القصيرة، الواضحة والدقيقة، وإجابات كورت ويلهيلم عن اليهودية.

ولقد استطاع الأستاذ البروتسانتي إرنست وولف أن يملأ عدة صفحات لمناقشة العلاقة بين الحقيقة الحسية واللاحسية، دون أن يحتاج للإحالة إلى الله حتى ولو مرة واحدة.

كما شهدت كيف استطاع الأستاذ الكاثوليكي جوهان بابتست ميتز أن يطلق العنان لنفسه في الحديث بإطناب عن: "بما أن هذا الوحي الذي تلقيناه من خلال السيد المسيح، والذي يُعْتَقد أنه الحادثة المميزة للخلاص والذي يجد الإنسان فيه لسؤاله التاريخي عن الوجود جواباً لا يمكن تجاوزه وسبقه إلى الأبد، فيجب أن يكون هذا الجواب موثقاً أصيلاً، وماثلاً على أنه نموذجٌ ومعيارٌ يحتذى، ويمكن للبشرية أن تصل إليه وتتعامل معه خلال تاريخها بأكمله، وهذا ما حدث بالتمام من خلال "الكتب المقدسة"، وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا التركيز على حادثة كتابة الوحي تمَّ إدراكها وتحققها ضمن البشرية التي كان لديها كتابٌ يُعْتَبَرُ وسيلة ملزمة للتراث التاريخي." يا إلهي!... [ما هذا التعقيد]...

وبالمقابل، فقد قدم الأستاذ محمد أسد بشكل جميل ومعبر صياغة مادته على النحو التالي: "إن الإسلام لا ينظر إلى الحقيقة على أنها مزدوجة... ولذلك، فلا يستطيع أحدٌ أن يقابل "حقيقة أخرى" مع "حقيقتنا"، بل إنه يتكلم عن المظاهر المدركة وغير المدركة عن "الإجمالية" الواحدة والمتماثلة. وكذلك فقد قال: "إن علم الطبيعة بذاته فقط غير قادرٍ على كشف كل مظاهر الحقيقة... ولذلك، أنزل الله وحياً كي يمنحنا الهداية الضرورية التي لا يستطيع العلم أن يقدمها لنا ويمنحنا إياها، وهذا الوحي ينزله الله على أشخاص يختارهم ويصطفيهم لهذه المهمة الجبارة، وهم "الأنبياء والرسل". انتهى.

القسمة والنصيب ليست عذراً...

بون. ٢٧ شباط/فبراير ١٩٨٠

لقد علمتني السيرة الذاتية الساحرة التي كتبها محمد أسد بعنوان: "الطريق إلى مكة (فرانكفورت ١٩٥٥)، علّمتني "القدَرِيَّة المشرقية"، وهي إذا ما فُهِمَتْ جيداً موقفٌ ليس نحو المستقبل، ولكنه نحو الماضي. إن قبول القسمة والنصيب ليس عذراً للانشغال بالتوافه. بل على النقيض من ذلك، إنها ببساطة إدراك أن الإرادة الإلهية هي وراء كل ما حدث سواء أحببناه أم لم نحبَّه.

وكان يعدلُ في الأهمية بالنسبة لي تقييمُ محمد أسد وهو أن ازدواجية الوجود، أو بالأحرى العدائية تجاه "الجسدية" الشخصية، والتي أدخلها القديس بولس إلى الكنيسة النصرانية ليجرِّد الإنسان من كرامته ككلٍّ متكامل كامل. ونتيجة لهذا فقد أعطيتْ "المانوية" عقداً جديداً للحياة متكررةً بزيٍّ النصرانية، فاصلةً حتى في هذا الوقت ما يُدْعى "المقدس" عما يُدْعى "النجس" بطريقة غريبة تماماً عما تعتقده وجهة نظر المسلمين عن القداسة.

كما يلفت محمد أسد انتباه المرء إلى الحقيقة التي غالباً ما تُتجاهل من قبل الكثيرين أن محمداً ﷺ أحدث ثورةً في منظومة القيم الاجتماعية للمجتمع العربي عندما استبدل المفهوم السياسي الجديد لما نسميه "الأمة" بالعلاقات والروابط القبلية التي تُعْتَبَرُ الأهم (وهي القوميةُ اليوم)، اعتماداً على السيادة الدينية فقط. ولا تقلُّ التوجيهات التي أتى بها محمد ﷺ عن الصلاة بمفهومها الثوري عن ذاك المفهوم الذي ألمعنا إليه آنفاً عن الروابط الاجتماعية. فالسجود على الأرض بتواضع وتذلل وانكسار، ووضع الجباه والأنوف عليها، وهي أعزُّ ما لدى العربي البدوي القرشي الفخور بعزته وشرفه وكرامته أمرٌ لم يكن مألوفاً لديهم على الإطلاق، ومخالفٌ لكل ما تعارفوا عليه.

حفلة الدراويش...

قونية ـ ١٣ تموز/يوليو ١٩٨٠

لقد استمتعنا بالنظر إلى المنظر الرائع للقبة الخضراء التي شُيِّدتْ فوق ضريح مولانا الشيخ جلال الدّين الرومي، وهي نسخةٌ مماثلةٌ تماماً لقبة المسجد النبوي في المدينة المنورة. ولقد استطاع هذا النظام الديني الذي أسسه الرومي، والذي يُعْرَف بـ: "الدراويش الدوارين" (الطريقة المولوية)، على الرغم مما أعلنه أتاتورك آنئذٍ أنها طريقة خارجة عن القانون في ١٣ كانون أول/ديسمبر ١٩٢٥، مثلما حدث للجزويت اليسوعيين الذين منعهم البابا عام ١٧٧٣ لمدة إحدى وأربعين سنة.

ويُقدَّم الدراويش اليوم كعرضٍ فولوكلوري مُسَلٍّ. ومع ذلك، فإن الجمهور يكتشف بسرعة أنه يشارك في ممارسة ازدهرت على جانب الإسلام. كما يتضح فوراً أن حركة الدوران المستمر للدروايش ليست رقصة نادرة غريبة، بل هي وسيلة للتأمل الديني.

إن أستاذي الذي علَّمني عزف القيثارة (الناي) المصنوع من القصب هو ذاته درويش متحمس. وقد حاول أن يحثني على الدراسة، مع المحافظة على ترتيب الأولويات، وألا أبدأ بدراسة القرآن الكريم، ولكن أبدأ بدراسة الأعمال الكاملة لشيخه المثنوي، وهو ديوانٌ ضخمٌ وغني من الشعر الصوفي الديني.

وقد أعجب أستاذي نيسن *Neysen* بالوجد الذي بثَّهُ الرومي، وبأناشيد الحب الكوني لأنها كانت تقيم جسوراً مع كل المعتقدات الأخرى مزيلة الخلافات بينها. والحق يقال: إن "المولوية" تقود أتباعها نحو توحيد متفائل تصبغه باللون الإسلامي وظلال وحدة الوجود. فهل هذا هو ما تعنيه "الطريقة"؟

القديس بولس، المهرطق

اسطنبول - ٢٠ تموز/يوليو ١٩٨٠

لا يمكن للمرء أن يتوقع جواباً إذا سأل: "كم كان طول عيسى المسيح عليه السلام؟" أو: "ما هو اللون المفضل لعيسى عليه السلام؟ أو: "هل أحب عيسى عليه السلام العسل أم الثوم؟" أو: "أي فردةٍ من الحذاء لبس أولاً عندما لبس حذاءه في الصباح؟" بل، يمكننا أن نكون متأكدين أن هذه الأسئلة وأمثالها هي أمور محظورٌ السؤال عنها في حياة إنسانٍ بمثل أهمية عيسى عليه السلام. إلا أن ما أريد أن أثبته هنا أننا نعرف كل هذه الأمور، بل والمزيد من التفاصيل عن حياة رسول الله محمد ﷺ. وأما من وجهة نظر الإنجيل، فإن عيسى عليه السلام، يظهر على أنه علمٌ من الأعلام البارزة له ظلالٌ غامضة. ويعزو البعض هذا الخلاف بين الشخصيتين إلى صعوبة توثيق حياة شخصٍ عاش قبل بعثة محمد ﷺ بستمئة سنة.

ولعلَّ هناك تفسيراً أفضل من هذا وهو: إن الأحاديث العديدة التي بُذِلَتْ جُهُودٌ مُضْنِيَةٌ في جمعها وترتيبها وتصنيفها وتمييزها عن الإسلام في بداياته نقلها ورواها ثِقَاةٌ عُدُولٌ شهودٌ ونقلوها؛ الواحدُ عن الآخر بمثل العدالة والضبط والثقة حتى وصلت إلينا في متونٍ رائعة من كتب مجاميع الحديث. وأما قصص الإنجيل، فهي إلى درجة كبيرة، قصص وروايات تمَّ جمعها في وقت متأخر، وغالباً ما تعتمد على "إشاعات" متداولة بين الناس فقط. فنادراً ما نقرأ في الإنجيل ما قاله عيسى عليه السلام ذاته، بل على النقيض من ذلك، نقرأ تفسيراتٍ وتأويلاتٍ لما أراد أن يقوله عيسى عليه السلام.

وبما أن العهد الجديد هو مصدر ثانوي، وليس أساسياً للمعلومات، فإنه لا يرتقي بحال من الأحوال إلى ما يرتقي إليه القرآن الكريم. بل

يمكننا مقارنته مع مجاميع الأحاديث الضعيفة، غير الصحيحة، والمشكوك فيها فقط. وإذا أردنا أن نعطي مثالاً واضحاً جداً فيمكننا القول: إذا تمَّ تطبيق مبادئ البحث الإسلامي على العهد الجديد، فإن كافة الرسائل التي كتبها القديس بولس سيتم حذفها منه؛ وذلك لأنه لم يرَ عيسى عليه السلام، ولم يلْتقِ معه، ولم يكلِّمْه على الإطلاق.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار التأثير الانتشاري بأن تفسير القديس بولس للأحداث التي أحاطت بحياة عيسى عليه السلام وأثرها على تطور الفكر العقدي للنصرانية، فيجب أن ينتسب النصارى اليوم إلى بولس فيقولون إنهم "بُولُسيون" (إذا أردنا مقارنتهم مع يهود النصارى القدامى). والحق أقول: إن الهرطقة المسيحية اليوم، وهي إعادة تفسير المسيح عليه السلام على أنه "إله"، وفرضية، أو نظرية "التثليث"، وتحويله إلى "جسد"، كل هذه بدأت مع بولس.